DOI: https://doi.org/10.22452/ris.vol12no1.8 Vol. 12 No. 1 (2025): 143-154

ONLINE JOURNAL OF RESEARCH IN ISLAMIC STUDIES
المجلة المحكمة عبر الانترنت في الدراسات الإسلامية
UNIVERSITI MALAYA
Akademi Pengajian Islam

Received: 2024-04-18 Accepted: 2025-05-04 Published: 2025-06-30

Original Article

دور الدين في تاريخ الحضارات عند ابن خلدون، ومالك بن نبي، وأرنولد توينبي

(The Role of Religion in the History of Civilizations in the View of Ibn Khaldūn, Mālik bin Nabi, and Arnold Toynbee)

Mohamed Fadel Belmoumene[a*] & Mohd Roslan Bin Mohd Nor[b]

[a] Ph.D Candidate, Department of Islamic History, Civilization and Education, Academy of Islamic Studies, Universiti Malaya, Kuala Lumpur

[b] Professor, Department of Islamic History, Civilization and Education, Academy of Islamic Studies, Universiti Malaya, Kuala Lumpur.

* Corresponding author, email; mohamedfadelb77@gmail.com

ملخص:

تعرض هذه الورقة موقف ثلاثة مفكرين في الفكر الحضاري وعلم الاجتماع الإنساني من قضية "الدين" ودوره في الحضارات الكبرى وتطور الفكر البشري عبر العصور، وهم حسب الترتيب الكرونولوجي: ابن خلدون (1406-1332م)، أرنولد توينبي (1975-1889م)، مالك بن نبي (1973-1905م). تبدأ هذه الورقة بنظرة عامة حول فكرة دور الدين في حركة البشر والتاريخ والحضارات من خلال مفكرين وفلاسفة غربيين وشرقيين، في محاولة للإجابة على الإشكال الذي كثيراً ما يُطرح وهو: ما فائدة الدين عل المستوى الحضاري؟ وهل فوائد الدين متعلقة بالحياة الروحية فقط؟ وهل مازلنا نحتاج إلى الدين بعد هذا الرشد البشري الذي وصلنا إليه؟ وللإجابة على حزمة الأسئلة السابقة تم عرض موقف عبد الرحمن ابن خلدون من دور الدين من خلال مصطلح "العصبية"، وموقف مالك بن نبي من خلال مصطلح "الفكرة الدينية"، وموقف أرنولد توينبي من خلال مفهوم "العجلة والمركبة"، وذلك بالاعتماد على المنهج التاريخي والتحليلي، وتنتهي الورقة إلى أنّ للدين -بمفهومه العام- دوراً مهما في مناح مختلفة من حركة الحضارات كظهور الدول، وانبثاق الفلسفات، وصعود العلوم والاكتشافات.

الكلمات المفتاحية: الدين، الحضارة، ابن خلدون، أرنولد توينبي، مالك بن نبي

ABSTRACT

This paper presents the position of three thinkers in civilizational thought and human sociology on the issue of "religion" and its role in major civilizations. And they are, in order: Ibn Khaldun (1332-1406), Arnold Toynbee (1889-1975), Mālik Binnabi (1905-1973). This paper begins with an overview of the idea of the role of religion in the movement of history and civilizations through Western and Eastern thinkers, in an attempt to answer the question that is often raised, like: What is the benefit of religion at the level of civilization? Are the benefits of religion related to spiritual life only? Do we still need religion after this human maturity that we have reached? In order to answer the previous questions, the paper presented the position of Ibn Khaldūn on the role of religion through the term "*'asabiyyah*", the position of Mālik through the term "The Religious Idea", and the position of Arnold Toynbee through the concept of "The Wheel and the Vehicle" based on the historical and analytical approach. The paper concludes that religion - in its general sense - has an important role in various aspects of life, such as the rise of states, the emergence of philosophies, sciences and discoveries.

Keywords: Religion, Civilization, Ibn Khaldūn, Binnabi & Arnold Toynbee.

المقدمة

تمّ التعرّض لموضوع الدين ودوره في التاريخ الإنساني والحضارات الكبرى من قبل مفكرين كثيرين من مرجعيات وثقافات مختلفة، كما تعاطوا مع هذا الموضوع من أكثر من جانب وعرّجوا على أهمية الدين ودوره في مجالات حضارية وثقافية وعلمية وقيمية وأخلاقية وفلسفية شتى، وسيكشف هذا المقال عن وجهات النظر هذه ويعرضها على نحو متسلسل ومرتّبٍ قدر الإمكان.

كبداية فإنّ آباء علم الاجتماع بصفة عامّة سواء أكانوا أربعةً أم خمسة -إميل دوركهايم، كارل ماركس، ماكس فايبر، جورج زيمل، ويمكن إضافة أوغست كونت إليهم- لم ينظروا إلى الدين باعتباره خرافاتٍ أو موضوعاً هامشياً؛ إذ رأوا أنّ الدين عنصر اجتماعي دمجي Integrative أساسي في التحولات السريعة الجارية في قارة أوروبا، أي أنه يساهم في بلورة الجماعات البشرية وتماسكها؛ لكنهم جميعاً في مقابل ذلك اشتركوا في رؤية انحساره، إذ توقعوا انحساره مع عملية التحديث والتصنيع وعقلنة العلاقات الإنسانية، وربما لم يخطر ببالهم إمكانية نشوء مجتمعات حديثة ومتديّنة في الوقت ذاته، كما حصل في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، كما أنهم لم يتوقّعوا أيضاً عودة الدين إلى السياسة بهذه القوة[1].

وكما يقرر مثلاً الفيلسوف الفرنسي بول ريكور Paul Ricoeur (1913-2005م) فإنّ الإسهام المسيحي في الثقافة والحضارة الأوروبيتين هو أمر لا يحتمل أدنى قدر من الشك، بل ويعترف بأن هذا المكون المسيحي في الثقافة الغربية وهي ثقافة معلمنة بصورةٍ كبيرة؛ لم يعد واضحاً وجلياً بالقدر الذي كان عليه في الماضي. وهو يميل إلى الدين ليس حاضراً في المجتمعات الأوروبية الحديثة إلا بصورة خفية مثل الملح في الأطعمة أو النسغ في النبتة، ولكن الناس جميعاً يعرفون أنهم حتى عندما لا يجدون طعم الملح صريحاً، فإن وجوده في الطعام هو ما يعطي له نكهته. كما أننا حتى عندما لا نرى النسغ، فإنه هو ما يبقي تلك النبتة على قيد الحياة. ولهذا نستطيع الذهاب إلى أنه حتى عندما لا تكون المسيحية مرئية اجتماعياً، وحتى عندما لا

[1] Bishārah 'Azmī, *al-Dīn wa al-'Ilmāniyyah fī Siyāq Tārīkhī*, (al-Markaz al-'Arabī li al-Abḥāth wa Dirāsat as-Siyāsāt, Qaṭar, Ṭ.1, Juz' 1, 2013), 289.

يكون هناك أي مسيحي في أوروبا فإنه سيكون من الصادق وجود مكوّن جوهري مسيحي للثقافة الأوروبية. وقد كان واضعو النسخة الأولى من تمهيد الدستور الأوروبي يقصدون هذا المعنى ولا شيء غيره[2].

وهذا المعنى استشرى عند غالبية الطبقات المثقفة بمن فيها تلك الطبقة التي لديها مواقف مسبقة ضدّ الدين والميتافيزيقا؛ فحتى المؤرخ المشكك لديه احترام متواضع للدين، لأنه يراه مؤدياً لوظيفة معيّنة، وأنه لا غنى عنه في كل أرضٍ وجيل[3]؛ فالدين -وكما يذهب إلى ذلك طلال أسد- في تصريح بالغ الأهمية يكشف حقيقة توغّل الدين في لاوعي الحضارة الغربية وهويتها وذاكرتها حيث يقول أنّ الدين "يُشكّل جزءاً لا يتجزّأ من التاريخ الغربي الحديث"[4].

الدين كبنية تحتية

ويقرر عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركايم Émile Durkheim (1858-1917م) ما سبق في تقرير شامل، مفاده أنّ البنية التحتية للمعرفة البشرية كلها ترجع إلى أصلٍ ديني حيث يكتب: "لقد توصّلنا إلى إثبات حقيقةِ أنّ أنواع الفكر الأساسية، وبالتالي العلم، لها أصلٌ ديني.. وبإيجاز، يمكن القول بأنّ كل المؤسسات الكبرى وُلدت من الدين"[5].

بل هناك من أعطى اعتباراً تأسيسياً وشاملا للدّين حتى عُدّ الدين في كثير من الأفكار التطورية في القرن التاسع عشر وضعاً إنسانياً مبكّراً تفرّعت منه الأفكار القانونية والعلمية والسياسية الحديثة ثم انفصلت عنه[6]، أيّ أنّ من يرفض أي دور للدين على نحوٍ مطلق وحسب التقريرات السالفة فكأنه يرفض العالم الحديث برمّته.

ويستمر السياق مبيّناً دور الدين حتى في هيكلة الدولة الحديثة؛ فمعظم مؤسساتنا الكبرى قد أُحدثت وفق نموذج المؤسسة الكنسية، سواء تعلق الأمر بالجامعة، وبسلطة البلدية، وبالأسواق والمحلات، أو الجمعيات التي تضم المفكرين، وبالتالي، يتعذّر تصور وضعية قصوى يكون الديني فيها قد أُقصيَ تماماً من فهم الذات الخاصة بالثقافات والدول القطرية الحديثة، فهذا يشكل بصورة كاملة جزءاً من تكوينها وتشكلها "Bildung"[7].

ومن أمثلة ظهور الدين ومشاركته في دفع عجلة الحضارة والتقدّم إلى الأمام مجالاتٌ كثيرة وعديدة، فكما يشير المفكر الجزائري مالك بن نبي Mālik Bennabi (1905-1973م) فإنّ "الحضارات وُلدت في ظل المعابد" مثل معبد سليمان والكعبة المشرفة، ومن هناك كانت تُشرق هذه الحضارات لكي تُنير العالم، وتزدهر في جامعاته ومصانعه، بل ولتصل إلى المناقشات السياسية في البرلمانات؛ فقوانين الأمم الحديثة لاهوتية في أساسها، وما يُطلقون عليه القانون المدني هو قانوني ديني في جوهره[8].

---

[2] Rikūr Būl, *Al-Mawt ar-Raḥīm li al-Ilḥād al-Mu'āṣir*, tarjamatuhu 'Ādil bin 'Abd Allāh wa 'Abd al-Ḥaqq az-Zamūrī, (Lubnān: Jusūr li at-Tarjamah wa an-Nashr, 2018): 149

[3] Will & Ariel Durant, The Lessons of History, (Simon & Schuster, 1st edition, 2010), 43.

[4] Asad Ṭalāl, *Jīnālūjiyā ad-Dīn: aḍ-Ḍabṭ wa Asbāb al-Quwwah fī al-Masīḥiyyah wa al-Islām*, tarjamatuhu Muḥammad 'Aṣfūr, (Lubnān, al-Madār al-Islāmī, Ṭ.1, 2017): 18

[5] Emile Durkheim, The Elementary Forms of the Religious Life, trans, Joseph Swain (Glencoe: Free Press, 1912), 48.

[6] Asad Ṭalāl, *Jīnālūjiyā ad-Dīn: aḍ-Ḍabṭ wa Asbāb al-Quwwah,* 51.

[7] Rikūr Būl, *al-Intiqād wa al-I'tiqād*, tarjamatuhu Ḥasan al-'Umrānī, (al-Maghrib: Dār Tūbqāl, t.1, 2001), 53.

[8] Malek Bennabi, Le Phénomène Coranique, Essai d'une Theorie sur le Coran, (Alger: Dar Al- Thuraya, 2ème Edition, 1946), 23.

وهناك من يذهب إلى أنّ الدين كان له دور حتى في ظهور بعض الفلسفات الكبرى كالتمثيل بقصة إبراهيم ﷺ على أنها أثّرت في نشوء الفلسفة الوجودية وذلك كما عند الفيلسوف الدنمركي سورين كيركغارد Søren Kierkegaard (1813-1855م)[9]، وكذلك ظهور المذهب الإنسانوي فهو لم يكن ابتكارا فلسفياً محضاً فكما تُتصور الإنسانوية ويُنظر إليها هذه الأيام كعدو لدود للدين أو شكل من أشكال الإلحاد، إلا أنّ أصل النهضة الإنسانوية كان مسيحياً[10].

ووصولاً إلى فكرة "الآخرة" أيضاً أو يوم القيامة والذي كان لها دور في دفع البشرية نحو التسجيل والتقييد وتقدير أعمال الحاضر بشكل عام، من حيث أنّ المرء يحاسب في الآخرة على كل ما جنت يداه في هذه الدّنيا، وأنّ كل ما يعمله اليوم مسجّل عليه ولن يُنسى، وبذلك اكتسبت كافة أعمال البشر سمة الخلود، وكان ذلك دافعاً واضحاً للتذكّر وتسجيل الأعمال[11].

ومن أكثر المجالات التي ظهر فيها الدين على نحوٍ واضح ومثّل فيها القوة الدافعة هو مجال العلوم والاختراعات[12] والبحث في الطبيعة والكون؛ فقلما نجد في بدايات العلم الحديث عالماً اشتغل وبحث في الطبيعة بعمق كالفزيائيين والكميائيين أو بحث في الطبيعة على السطح كالرحّالة والمكتشفين والجغرافيين إلا اعتبر ذلك الجهد البحثي ذاته نوعاً من أنواع العبادة، وشكلاً خفياً من خدمة الخالق والتقرّب إليه[13]. وكذلك تقريباً كان أغلب الأعلام البارزين في الثورة العلمية نصارى كاثوليكيين أو بروتستانتيين رأوا في أبحاثهم واجتهاداتهم تمجيداً لله ودفاعاً عن الدين[14].

تأثير الدين الإسلامي

وفي الإسلام تحديداً، يصف المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي هذا الدّين الإسلامي بأنه الدين الأكثر عقلانية من بين جميع الأديان الحية الكبرى في العالم وذلك يظهر أيضاً من حيثُ عنايته بمفهوم التوحيد ووضوح مفهوم الإله أيضاً وعدم تشوّشها كما في بقية الأديان والفلسفات الدينية[15]، بالإضافة إلى ذلك لم يكن الإسلام متوافقاً مع العلم وحسب، ولم يقم فقط بتشجيع العلم والتفكير العلمي، وإنما ساهم أيضاً بشكل كبير في وجود العالم الحديث كما على وجهه المعروف اليوم[16]؛ فالغرب نفسه لم يكن ليطور تقليداً علمياً خاصاً به بالسرعة التي أنجزه بها دون مساعدة معرفة وبحوث المسلمين، ولعله، وإلى حد بعيد، لم يكن لولا ذلك ليضع ذلك التقليد ولا أن يصل إلى ما وصل إليه أبداً[17].

فبصمة العبقرية العربية كما يشيد بذلك العالم الأمريكي سكوت Parsons Scott Samuel (1846-1929م) يمكن استشعارها في روايات بوكاتشيو، ورومانسيات ثربانتس، وفلسفة فولتير،

---

[9] Bishārah ʻAzmī, *al-Dīn wa al-ʻIlmāniyyah fī Siyāq Tārīkhī*, 152.

[10] Jilasbī Māykl Ālīn, *al-Judhūr al-Lāhūtiyyah li al-Ḥadāthah*, ed. Fayṣal bin Aḥmad al-Farhūd, (Lubnān: Dār Jadāwil, 2019), 49

[11] Rūzintāl Farānz, ʻ*Ilm al-Tārīkh ʻinda al-Muslimīn*, ed. Ṣāliḥ Aḥmad ʻAlī & Riḍwān as-Sayyid, (Lubnān: Dār al-Madār al-Islāmī, Ṭ.1, 2017), 50

[12] Mousa, Faraj Murajia, Ahmad Faisal Abdul Hamid, and Mohd Roslan Mohd Nor. "A Journey About the Innovations of Muslims in Andalusia: (316هـ/928–422هـ/1031م) رحلة قصيرة عن مبتكرات المسلمين في الأندلس." *Al-Muqaddimah: Online Journal of Islamic History and Civilization* 10(1)(2022): 17-29.

[13] Bishārah ʻAzmī, *al-Dīn wa al-ʻIlmāniyyah fī Siyāq Tārīkhī*, 437.

[14] Larson, E. and Ruse, M., *On Faith and Science*, (United States: Yale University Press, 2017), 43

[15] Toynbee,Arnold, *An Historian's Approach to Religion*, (Oxford University Press, First Edition, 1956), 22.

[16] Hamilton, M. 1 M. *The Lost History: The Enduring Legacy of Muslims Scientists, Thinkers, and Artists*, (National Geographic, National Geographic; Reprint edition, 2008), 79.

[17] O'Brien, P. Islamic Civilization's Role in the Waning of the European Middle Ages, *The Medieval History Journal,* (1999):387.

وفي "المبادئ" لنيوتن، وفي تراجيديا شكسبير، وأنّ مجال حدودها يتقاطع مع حدود الحضارة الحديثة، وتأثيرُها باقٍ في طابع تلك الحضارة[18].

كما أنّ الشهادات حول النهضة التي تسبّب بها دين الإسلام منذ ظهوره على خشبة التاريخ يصعب إحصائها وعدّها، وهي شهادات من خارج دائرة الإسلام تنقل وتذكر باندهاش حجم التغيير الذي حمله دين الإسلام فأحال المتوحّش متحضّرا، وبسرعة قياسية وغير مسبوقة مع عمق وتجذّر في نفس الوقت، وهي تحوّلات وتغيّراتٌ لم تكن ليحصل معشارها لولا الدين حيث كان العامل الرئيس فيها والفاعل الأساسي في تحريكها وتوجيهها.

فالإسلام هو من حوّل القبائل البشرية الهائمة إلى مجتمعات وحضارات ظلّت آثارها باقية وواضحة للعيان وشاهدة على ذلك التغيير[19]. بل وطبقاً للعالم الأمريكي جورج بوش George Bush (1796-1859م) فإنه لا توجد ثورة سجّلها التاريخ، إن أُستُثنيت تلك التي أحدثها دين الإنجيل، ألحقت تغييرات عظمى بوضع العالم المتحضّر، أعظم من تلك التي نجمت عن ظهور وتقدّم وثبات الدين المحمدي"[20] أي دين الإسلام، لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه محمد ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء: كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان غريباً في سعته وشموله[21].

ويشهد على هذا نهوض الحضاري السريع واقوي والمتّسع وعلى نحوٍ لا مثيل له المستشرق الألماني صاحب الخبرة الطويلة بتاريخ الإسلام فرانز روزينتال Franz Rosenthal (1914-2003م) حين يعترف بأنّ نموَّ المدنية الإسلامية كانت من أروع الأحداث في تاريخ الفكر الإنساني وستبقى مثار أعظم الإعجاب، ولعلها كانت معجزة من حيث حدوثها بسرعةٍ عجيبة لدرجة أنها كمُلت بعد بدئها بوقتٍ قصير[22].

كما كان للدين الإسلامي على وجه الخصوص دورٌ استثنائي في انقراض الوعي بالعنصر الإثني، كما يؤكد ذلك أرنولد توينبي وهو الأمر الذي عاشه المسلمون حقيقة، وهو واحد من الإنجازات البارزة للإسلام، كما يشدد توينبي على أنه في العالم المعاصر، هناك حاجةٌ ملحة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية[23]؛ وهذا أمرٌ عامٌ في جميع الأديان فالدين السماوي مهما تحرّف وتغيّر لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان، فجمعت النصرانية الأمم الأوروبية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنعرة الوطنية، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة[24].

كما كان للدين والأديان بصفة عامة دور على المستوى النفسي كذلك، حيث توفر ثقافة الأديان الكبرى جميعها في العالم طمأنينة معيّنة حين يعجز الفرد وحده عن فهم ما سيحصل أو ما سيكون في المستقبل أو فيما هو قادم، حيث يشعر بداخله وبفضل تعاليم الأديان أنّ قوةً عليا

---

[18] Scott, S.P. *History of the Moorish Empire in Europe*, (London: J.B. Lippincott Company, 1994), 14-16.

[19] Eaton, Charles, *Islam and the Destiny of Man*, (State University of New York Press; 1st edition, 1985), 77.

[20] Bush, G., *The Life of Mohammad Founder of the Religion of Islam, and of the Empire of the Saracens*, (New York: A.L. Fowle, 1900), 17.

[21] Abū al-Ḥasan Al-Nadwī, *Mādhā Khasira al-'Ilm bi-Inḥiṭāṭ al-Muslimīn?,* (Sūriyā: Dār Ibn Kathīr, t.t.), 152.

[22] فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، مرجع سابق، ص55 روزنتال

[23] Toynbee, Arnold, *Civilisation on Trial*, (New York, 1948), 205

[24] Abū al-Ḥasan Al-Nadwī, *Mādhā Khasira al-'Ilm bi-Inḥiṭāṭ al-Muslimīn?,* 275.

تضمن سير الأمور على ما يُرام؛ إذا تؤكد الأيديولوجيا الدينية والأيديولوجيا العلمانية للناس أنّ الكون يتبع خطة محكمة تضمن عند اتّباعها، والامتثال لقواعدها، أنّ كل شيء في هذا العالم وما بعده سيكون عل أفضل ما يُرام. وهذا المعتقد يخفّف على الناس ثقل الضغط، ويُصبح في إمكانهم تبديد قلقهم والتركيز على مشكلاتهم المباشرة[25].

وهو ما يُعبّر عليه اليوم في التنمية البشرية وكتب بناء الذات بعبارة "عش اللحظة" أو "Be in the moment" وهي فكرةٌ يُشجّع عليها الديّن أيضاً، كما أنه من غير المستبعد أن تكون فكرة دينية بالأساس نظراً لأنّ الدين سابق للعلمانية تاريخيا.

وللدين والأديان عموماً دور بالغ الأهمية في الحفاظ على القيم والتراث الأخلاقي المشترك، ومن ذلك مثلا أنّ أصحاب الرؤى التقليدية والدينية تزيد لديهم معدّلات الإنجاب والثروة البشرية ويكون لديهم معدل خصوبة ونمو سكاني أعلى من المعدّلات في البلدان التي لا يؤمن أصحابها بقيم أخلاقية دينية. وسبب ذلك أنّ من أهم الخصائص لدى الأديان التقليدية المعروفة جميعها، تقوية العائلة وتشجيع المرأة على البقاء في المنزل، وتربية الأطفال، وتحريم الإجهاض والطلاق أو أي شيء يعوّق نسبة التناسل العالية[26].

دور الدين عند ابن خلدون

اعتبر ابن خلدون الدعوة الدينية أو النبوة ضرورية لقيام الدول، فهي كمشروع تهذيبي تربوي، وإيديولوجية تحمل مشروع إصلاحي للذات والمجتمع، تساعد الأشخاص والجماعات على تجاوز أهدافهم ومصالحهم الفورية لصالح الأهداف والغايات بعيدة المدى، مثل الصراع والحروب بين القبائل والتي من شأنها إضعاف شوكتهم، وتشتيت اجتماعهم على هدف وفكرة يعيشون لأجل تحقيقها وجعلها واقعا ملموساً. ويمثّل ابن خلدون لهذه الفكرة بنماذج تاريخية واقعية انتهى إليها بحثه الشخصي ونظره المستمر في وقائع تاريخية كثيرة عاشها هو بنفسه، كتمثيله بالشعب العربي ودور الدين في صناعة الملك العربي وأنّ العرب لم يسبق لهم بناء مجد أو صناعة دولة من دون الدين أو الفكرة الدينية أو بقايا النبوّات. فالدعوة الدينية إذا كانت لجانب العصبية زادت الدولة والأنظمة السياسية والجماعات قوةً وجمعاً للكلمة والقلوب على طلب الحق، غير مكترثين بالأهداف الثانوية من الحسد والشحناء وطلب الملك وغير ذلك من الأشياء التي تُبعدهم عن هدفهم الرئيس الذي يعيشون له ويموتون لأجله[27].

وهنا يقوم ابن خلدون بفحص ظاهرة "الاجتماع الديني" أو التضامن الديني، فكما أنّ ابن خلدون يعتبر العصبية لكونها تدعم السلطة وتسمح لها أن تضع حدّا للنزاعات البشرية القادمة من طبيعتهم العدوانية أو الأنانية، وذلك من خلال القهر والسيطرة. في هذا السياق فإنّ الملامح السلبية للطبيعة البشرية كالعدوان والحسد والغيرة والأنانية هي من أسباب التفرّق والحرب لا تُلغى أو يتم التغلّب عليها أو تصحيحها، وإنما تُردع بالقوة. وحده الدين -حسب ابن خلدون- قادر على جعلها تختفي[28].

---

[25] Nūris Bībā wa Inghilhārt Rūnāld, *Muqaddas wa ‘Ilmānī,* ed. Aḥmad Mughribī, (Qaṭar: al-Markaz al-‘Arabī li al-Abḥāth wa Dirāsat as-Siyāsāt, 2018), 43.

[26] *Ibid*., 49.

[27] Nūr al-Dīn Zimām, *‘Abd ar-Raḥmān Ibn Khaldūn wa ad-Da‘wāt ad-Dīniyyah*, (al-Jazā’ir: Dawriyyah Dafātir al-Makhabir, t.t.) 12(1):231.

[28] Shaddādī ‘Abd al-Salām, *Ibn Khaldūn: al-Insān wa Munazzir al-Ḥaḍārah*, ed. Ḥanān Qaṣṣāb Ḥasan, (Bayrūt: al-Maktabah al-Sharqiyyah, 2016), 395.

ويبيّن كذلك ابن خلدون أنّ الدين يُحدث تغييراً جذرياً لدى البشر حين يجعلهم يستبدلون تركيزهم على أهداف أنانية بتوجّههم نحو الله أو نحو "الحق"، أي نحو واقع وقيم تتجاوز البشر ومصالحهم الضيقة. والدين يسمح لهم بهذا الشكل من التعاون والتعاضد والتجمّع حول رؤية واضحة وأهداف مشتركة يكونون مستعدّين لتحقيقها، وأن يضحوا بحياتهم لأجلها[29].

كما يعتمد ابن خلدون أيضاً على بعض النماذج التاريخية في بيان دور الدين في الحركة الإنسانية والحضارية مستخدماً "لغة الأرقام" وذلك بالاستشهاد بالفارق المهول بين أعداد الجيوش العربية وغيرها من الجيوش الأعجمية التي واجهتها خلال مرحلة التوسّع والانتشار في صدر الإسلام، ويمثّل لذلك بمعركة القادسية واليرموك وغيرها، وكذا ما جرى للقبائل في الغرب الإسلامي أيضاً ونجاحهم في تكوين دولة لمتونة ودولة الموحدّين[30].

فالدين يقدم توجّهات وأهداف يكون معتنقوه مستعدّين لأن يُضحوا بحياتهم من أجل تحقيقها، وبذلك يُلغون كل المصالح الذاتية والغيرة والتنافس أو ما يُصطلح على معرفته في الإنجليزية بالـ Ego، وقوة العصبية تزيد بفعل ذلك عشرات المرات، مما يفسّر قدرة القوى التي تُعتبر ضعيفة نسبياً على أن تهزم القوى التي تفوقها عدداً بعشرات المرات[31].

وخلال هذا التنظير الخلدوني لدور الدين على المستوى الاجتماعي يؤكد ابن خلدون على خطورة العصبية ودورها الحاسم في تعضيدها للدعوات الدينية؛ فانتشارها مرهون بوجود قاعدة بشرية ونسيج اجتماعي يحميها ويحتضنها ويستشد ابن خلدون هنا بالحديث الصحيح (ما بعث الله نبيّاً إلا في منعةٍ من قومه)[32].

يكشف هذا الحديث عن مدى امتثال الأنبياء الذي هم مؤهلون وممكّنون لخرق السنن وتجاوز النواميس وقواعد الاجتماع لسنن التغيير ومتطلبات الحركة والإصلاح، فما الظن بغيرهم من أصحاب الدعوات الدينية، فليس بمقدورهم إبطال سنن الاجتماع وقوانين التغيّر السياسي والاجتماعي، فلن يكون النجاح حليفهم من دون أساس اجتماعي يعتمدون عليه، ولعل ذلك ما جعل الكثير من الدعوات التي تفتقر هذا العنصر المهم تفشل وتدخل في صدامات خطيرة أتت على قادتها وأفرادها[33].

وابن خلدون حاسم في هذا الباب؛ فالدين عند ولادته، أو أية حركة دينية إصلاحية لا يمكن أن يؤديا إلى النتائج المرغوبة بدون العصبية، فإن اجتمعت العصبية والدين؛ فإنّ تأثيرهما يُضاف إلى بعضهما. وعندما يدعم الدين العصبية فإنّ القوة الاجتماعية والسياسية التي تترتب على ذلك لا يمكن قهرها تقريباً، وهذا ما أدّى إلى تشكّل أكبر الإمبراطوريات. وعندما تدعم العصبية الدّين، فإنّ حظوظه في النجاح تزداد ويمثّل لذلك بدين الإسلام.

وينتهي ابن خلدون هنا إلى بناء قانون سوسيولوجي عام ألا وهو أنّ النجاح في أي مشروع سياسي أو ديني متعلّق بوجود دعم اجتماعي قائمٍ على التضامن[34].

ثم يضيف عبد الرحمن قاعدة مهمة وسنة دقيقة من سنن التاريخ وهي قضية ضرورة التحام الديني بالاجتماعي كشرطٍ لنجاحه على مرّ العصور، وأنّ الأنبياء عليهم السلام اعتمدوا في

---

[29] *Ibid*., 395.
[30] Nūr al-Dīn Zimām, *'Abd ar-Raḥmān Ibn Khaldūn wa ad-Da'wāt ad-Dīniyyah*, 231.
[31] Shaddādī 'Abd al-Salām, *Ibn Khaldūn: al-Insān wa Munazzir al-Ḥaḍārah*, 427.
[32] Nūr al-Dīn Zimām, *'Abd ar-Raḥmān Ibn Khaldūn wa ad-Da'wāt ad-Dīniyyah,* 231.
[33] *Ibid*., 231-232.
[34] Shaddādī 'Abd al-Salām, *Ibn Khaldūn: al-Insān wa Munazzir al-Ḥaḍārah*, 396.

دعوتهم على العشائر والعصائب، وهم المؤيَّدون من الله بالكون كلّه لو شاء، ولكنه سبحانه إنما أجرى الأمور على مستقرّ العادة.

وهذا ما حصل عند تشكّل الإمبراطورية العربية الإسلامية، وإمبراطوريتي المرابطين والموحّدين في المغرب، فكان الدين يقوم بدورٍ أساسي وكان يؤدي في كل مرة إلى النجاح، والدين بحدّ ذاته يقوم بوظيفة الإسمنت الذي يشكّل لحمة تجمّع السكان القبليين والحضريين بدون تمييز، وليس حول زعيم له جاذبية بقدر ما هو حول القيم المنزلة. وابن خلدون يذكر بالكاد دور الزعماء الدينيين الذين كانوا على رأس الحركات السياسية الدينية في أمثلة تاريخية معروفة، وما يأخذه بعين الاعتبار هو "القوة الإضافية" التي يضيفها الدّين إلى قوة العصبية، وفي الموقف الثاني بالمقابل يكون التفوّق لجاذبية الزعماء؛ لكن في جميع الأمثلة التي يسوقها ابن خلدون يؤدي ذلك إلى الفشل[35].

فابن خلدون يعتبر أنّ للدين دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية والسياسية، بل هو على العكس يقول أنّ دوره أساسي، وهو يشير إلى ذلك منذ التمهيد للمقدّمة عندما يذكّر بالقول المأثور الفاسي الذي يفيد بأنّ القانون الديني وطاعة الله وتعاليمه يشكّلان عنصراً أساسياً في السلطة السياسية، وهو يعود إلى هذه الفكرة مرارا وتكراراً في معرض بناءه لنظريته حول السلطة. وعلى صعيدٍ عام يعتبر ابن خلدون بأنّ الدين هو ما ينظّم بشكل حقيقي المجتمع والسلطة؛ فالدين من حيث هو إيمان وجماعة، يُعتبر بالنسبة للوجود والسلطة كمثل الشكل للمادة، لا بل أنه يؤكد على كون جميع الإمبراطوريات الكبرى لديها أسس دينية[36].

ومع ذلك ظهرت بعض المحاولات التي سعت لقراءة ابن خلدون وموقفه من الدين قراءة رغبوية ترمي إلى "التخفيف" من وزن الدين في الطرح الخلدوني، حيث اعتبرت الدعوة الدينية أمراً مكمّلاً عند ابن خلدون وليست ركناً أساسياً، وهي تلعب دوراً متوسّط الأهمية في تأليف القلوب وإضافة بعض الحماس للدول التي قامت حديثاً[37].

والخلاصة بالنسبة لموقف ابن خلدون من دور الدين ووظيفته؛ فالدين يوحّد الصفوف، ويقلل الخلاف، ويحقق التعاون والتعاضد، ويعطي للاتّحاد معنى كبيراً، فيرفع سقف الأهداف والغايات وبهذا استطاعت القبائل العربية المنقسمة أن تهزم دُولاً وحضارات قائمة بعدّتها وعتادها، فآصرة الدين تلعب دوراً أساسياً في تمتين عرى القبائل واتّحادها.

دور الفكرة الدينية عند مالك بن نبي

كان مالك بن نبي من أكثر من اشتهر من المفكّرين العرب واعتنى بدور الدين حضارياً، وهو ما يسميه ويطلق عليه خلال دراساته وأبحاثه "الفكرة الدينية"، وهو العنصر الرابع الذي يضيفه مالك إلى عناصر الحضارة الثلاثة التي إن وُجدت وتوفّرت وُجدت الحضارة وهي التراب والأرض والإنسان، ويجادل بن نبي بأنّ الحضارة لا يمكن أن تقوم على العناصر الثلاثة آنفة الذكر لوحدها فقط، ويشرح مالك دور الدين ضمن المكوّنات الحضارية الثلاثة ممثّلاً لجوابه بالتركيب الكميائي للماء والذي هو في حقيقته نتاج للهدروجين والأوكسجين وبرغم هذا فهما لا يكوّنانه تلقائياً، فتركيب الماء يخضع لقانون معيّن يقتضي تدخّل "مركِّب" ما، بدونه لا تتم عملية تكوّن الماء. وبالمثل يذهب بن نبي إلى إطلاق "مركّب الحضارة" على

[35] *Ibid*., 402.

[36] *Ibid*., 354-355.

[37] Al-Sayyid Riḍwān, al-Dīn wa al-Dawlah wa al-‘Imrān fī Ru’yat Ibn Khaldūn, *Majallat al-Tafāhum, Salṭanat ‘Umān,* 12(43)(2014): 88-90.

الدين أي العامل الذي يؤثّر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، وهذا المركِّب هو الفكرية الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ[38].

فدور الدين في الحضارة هو دور العامل المركِّب لعناصرها، واختفاء هذا الدور يعني تحلّل هذه العناصر إلى وضع غير مركّب وهو تحلّل الحضارة، ويسحب بن نبي هذه الفرضية على جميع الحضارات المعروفة كتمثيله بأنّ الفكرة المسيحية مثلاً هي من أنبتت الحضارة الغربية عبر دفع البداوة الجرمانية إلى تكوين هذا الكيان الذي أسسه شارلمان، وهذا التحليل يوافق فيه مالك بن نبي مع غيره من المفكريين الغربيين مثل المفكر الألماني كيسرلنج والمؤرخ هنري بيرين[39]. فالدين هو الذي ينقل المجتمع من حالته البدائية، ويحوّله إلى مجتمع تاريخي بحيث يبني المجتمع نظامه طبقا للرؤية الدينية التي شكّلت حضارته، وجعلته مميّزاً عن المجتمعات التاريخية الأخرى وحدّد ثقافته بما يميّزها عن غيرها من الثقافات[40].

دور الدين عند أرنولد توينبي

أما منزلة "الدين" في الأطروحة الكبرى للرؤية التنوينبية حول حركة الحضارات؛ فهو وكما أعلن سنة 1955م: "الدين في حالة عودة مرة أخرى، ليأخذ الرقعة المركزية في تصوري للكون"، بعد المجلّد السابع من دراسة للتاريخ يأخذ توينبي "منحى جديداً" في رؤيته للدين ودوره داخل حركة التاريخ والحضارات؛ حيث توقّف توينبي عن النظر للدين كمرحلة أولية للحضارة أو صورة بدائية للتقدّم، وإنما صار ينظر للحضارات على أنها تمثّلات لأديان ونتائج لها، ونتيجة هذه الرؤية الجديدة تؤدي إلى حقيقة أن انهيار وتفكّك الحضارات لا يعني فشلها بقدر ما يعني أنها سلكت الطريق الصحيح وأنها قد تكون نجحت في مهمتها الرئيسية؛ فالدين هو أثمن ثمار الحضارة.

يشبه توينبي هنا الحضارات بالعجلة، حيث يرى أنّ نهوض وسقوط الحضارات ما هو إلا حركة للعجلة خلال تأدية دورها في تحريك المركبة إلى الأمام، والمركبة هنا هي الدين.

فالدّين -عند توينبي- هو القوة المنعشة التي تقف وراء كل الثقافات التقليدية المتناقلة، وقد توصّل توينبي نتيجةً لدراساته التاريخية إلى أنّ كل أديان العالم تشترك في أساس جوهري مشترك، واعتبر الاختلافات بأنها تراكمات غير أساسية تتعلق بالزمان والمكان والظروف الاجتماعية والثقافية، حيث يقول: "الأديان مؤسسات تاريخية وكانت تحقق الانتقال خلال فسحة الزمن، وفي كل لحظة من مسارها واجهت الظروف المحلية والمؤقتة للحياة البشرية. وهذه التراكمات العرضية هي الثمن الذي على الأساس الصالح الدائم الشامل لدين أرقى أن يدفعه لإيصال رسالته إلى أعضاء مجتمع معيّن في مرحلة معيّنة من تاريخ المجتمع، وإذا لم يتوافق جوهر الدين مع الظروف المحلية والمؤقتة، عن طريق التكيّف معها، فإنه لن يصل إلى الجمهور إطلاقاً، لأنّ النصائح العامة والحقائق الثابتة في أيّ مجتمع إنساني مبسوطة في أحد الأنماط الثقافية المحلية والمؤقتة"[41].

الخاتمة

[38] Shāwish Muḥammad, *Mālik bin Nabī wa al-Waḍ' ar-Rāhin*, (Dimashq: Dār al-Fikr, t.1, 2007), 28.
[39] *Ibid*., 29.
[40] Al-'Uwīsī, 'Abd Allāh bin Ḥamad, *Mālik bin Nabī: Ḥayātuhu wa Fikruh*, (Lubnān: Al-Shabakah al-'Arabiyyah li al-Abḥāth wa ad-Dirāsāt, 2012), 417–418.
[41] Arnold Toynbee, *An Historian's Approach to Religion*, (New York: Oxford University Press, 1956), 265-66.

وتنتهي هذه الورقة إلى مجموعة من النتائج المهمة حول موقف ابن خلدون وتوينبي ومالك بن نبي من دور الدين في الحياة، وهي إقرار كل واحد من هؤلاء المفكرين بأهمية الدين ودوره الفعّال والإيجابي على مختلف مناحي الحياة الإنسانية والحضارية والروحية والعلمية والفلسفية والأخلاقية.

فكان للدين تاريخياً دور -رئيسي ومشارك- في الجانب الاجتماعي وربط عرى المجتمع وتشجيع التضامن والمؤاخاة وإذابة الأنانية والمصالح الشخصية والفروق العنصرية بين الأعراق والشعوب، كما شجّع الدين على ظهور كثير من الاكتشافات والأفكار من الاختراعات العلمية وبعض الفلسفات أيضاً، وساهم الدين في بناء فلسفات القانون ومؤسساته والتي كانت مستمدة في أصلها من التنظيم الكنسي السابق عليها. بالإضافة إلى توفير السكينة للأفراد والمجتمعات وجعل الحياة تسير على وتيرة مستقرة بفضل التعلق بالعالم الآخر والله والآخرة.

أهم المراجع

Asad, Ṭalāl, Jinālūjiyā al-Dīn (2017), *al-Ḍabṭ wa Asbāb al-Quwwah fī al-Masīḥiyyah wa al-Islām*, ed. Muḥammad ʿAṣfūr, Ṭ.1, Lubnān: al-Madār al-Islām.

Bishārah, ʿAzmī, (2013), *al-Dīn wa al-ʿIlmāniyyah fī Siyāq Tārīkhī*, Ṭ.1, Juzʾ 1, Qaṭar: al-Markaz al-ʿArabī li-l-Abḥāth wa Dirāsat al-Siyāsāt.

Gillespie, Michael Allen, (2019), *al-Judhūr al-Lāhūtīyah li-l-Ḥadāthah*, tarjamat: Fayṣal ibn Aḥmad al-Farhūd, Ṭ.1, Lubnān: Dār Jadāwil.

Rosenthal, Franz, (2017), *ʿIlm al-Tārīkh ʿInda al-Muslimīn*, tarjamat: Ṣāliḥ Aḥmad ʿAlī, taqdīm: Riḍwān al-Sayyid, Ṭ.1, Lubnān: Dār al-Madār al-Islāmī.

Rīkūr, Būl, (2001), *al-Intiqād wa al-ʿtiqād*, tarjamat: Ḥasan al-ʿUmrānī, Ṭ.1, al-Maghrib: Dār Tūbqāl.

Zammām, Nūr al-Dīn, (t.t), ʿAbd al-Raḥmān Ibn Khaldūn wa al-Daʿawāt al-Dīniyyah, al-Jazāʾir : Dawrīyat Dafātir al-Makhbar, 12(1) t.t.

Al-Sayyid, Riḍwān, (2014), 'al-Dīn wa al-Dawlah wa al-ʿUmrān fī Ruʾyat Ibn Khaldūn', *Majallat al-Tafāhum, Sulṭanat ʿUmān*, 12(43).

Shāwīsh, Muḥammad (2007), *Mālik ibn Nabī wa al-Waḍʿ al-Rāhin*, Ṭ.1, Dimashq: Dār al-Fikr.

Shaddādī, ʿAbd al-Salām, (2016), *Ibn Khaldūn: al-Insān wa Munẓir al-Ḥaḍārah*, tarjamat: Ḥanān Quṣṣāb Ḥasan, Ṭ.1, Bayrūt: al-Maktabah al-Sharqiyyah.

Al-ʿUwīsī, ʿAbd Allāh ibn Ḥamd, (2012), *Mālik ibn Nabī: Ḥayātuh wa Fikruh*, Ṭ.1, Lubnān: al-Shabakah al-ʿArabiyyah li-l-Abḥāth wa al-Dirāsāt.

Fīlīb Nīmū (2018), *al-Mawt al-Raḥīm li-l-Ilḥād al-Muʿāṣir*, tarjamat: ʿĀdil ibn ʿAbd Allāh wa ʿAbd Al-Ḥaqq al-Zamūrī, Ṭ.1, Lubnān: Jusūr li-l-Tarjamah wa al-Nashr.

Abū al-Ḥasan Al-Nadwī, (t.t). *Mādhā Khasira al-ʿĀlam bi-Inḥiṭāṭ al-Muslimīn?*, Ṭ.6, Sūriyā: Dār Ibn Kathīr.

Nūris, Bībā & Inghilhārt, Rūnāld, (2018), *Muqaddas wa ʿIlmānī*, tarjamat: Wajīh Qānṣū – Aḥmad Maghribī, Ṭ.1, Qaṭar: al-Markaz al-ʿArabī li-l-Abḥāth wa Dirāsat al-Siyāsāt.

Nīmū, Fīlīb (Philippe Nemo), (2018), *al-Mawt al-Raḥīm li-l-Ilḥād al-Muʿāṣir*, ed. ʿĀdil ibn ʿAbd Allāh wa ʿAbd al-Ḥaqq al-Zamūrī, Ṭabʿah 1, Lubnān: Jusūr li-l-Tarjamah wa al-Nashr.

Nūris, Bibā & Inghilhārt, Rūnāld (Pippa Norris & Ronald Inglehart), (2018), *Muqaddas wa ʿIlmānī*, tarjamat: Wajīh Qānṣū – Aḥmad Maghribī, Ṭabʿah 1, Qaṭar: al-Markaz al-ʿArabī li-l-Abḥāth wa Dirāsāt al-Siyāsāt.

Zammām, Nūr al-Dīn, *ʿAbd al-Raḥmān Ibn Khaldūn wa al-Daʿawāt al-Dīniyyah*, *Dawrīyat Dafātir al-Makhbar*, al-Jazāʾir, al-Mujallad 12, al-ʿAdad 1, bidūn sanah.

Arnold Toynbee (1956), *An Historian's Approach to Religion*, New York: Oxford University Press.

Eaton, Charles (1985), *Islam and the Destiny of Man*, State University of New York Press; 1st edition.

Emile Durkheim, (1912), The Elementary Forms of the Religious Life, trans, Joseph Swain, Glencoe: Free Press.

Morgan, Michael Hamilton (2008). "Lost History: The Enduring Legacy of Muslim Scientists, Thinkers and Artists. National Geographic, National Geographic; Reprint edition, 2008.

O'Brien, Peter. (1999), "Islamic Civilisation's Role in the Waning of the European Middle Ages." *The Medieval History Journal* 2, no. 2: 387-404.

Scott, Samuel Parsons (1904). *History of the Moorish Empire in Europe*. Vol. 2. London: Lippincott, 1904.

Toynbee, Arnold Joseph, and David Churchill Somervell. (1948), *Civilization on trial*. New York: Oxford University Press.

Toynbee, Arnold, (1956), *An Historian's Approach to Religion*, New York: Oxford University Press, First Edition.

Durant, Will, and Ariel Durant. (2012), *The lessons of history*. Simon and Schuster.

Bennabi, Malek. (2021), *Le Phénomène coranique: Essai d'une théorie sur le Coran*. Héritage, (Alger, Dar Al- Thuraya, 2ème Edition, 1946).

Kuukkanen, Jouni-Matti, ed (2020). *Philosophy of History: Twenty-first-century Perspectives*. Bloomsbury Publishing.

Lougheed, Kirk (2023), *A relational theory of the atonement: African contributions to Western philosophical theology*. Routledge.

Pravartaka Acharya, (2023), Interregnum: Restoring Authentic Rulership in the Kali Yuga, (International Sanatana Dharma Society, 1st edition, 2023.